الدرس اللغوي والبلاغي عند العرب وأثره في تأسيس النقد الأدبي

The linguistic and rhetorical lesson among the Arabs and its effect on establishing literary criticism

حليمة عواج *
جامعة باتنة 1
aouadjhalima@gmail.com

حسين مبرك
جامعة محمد بوضياف -المسيلة،
hocine.mebrak@univ-msila.dz

تاريخ الإرسال: **2023-10-28** تاريخ القبول: **2024-12-16**

ملخص:

قد بذل العرب الأوائل جهودا محمودة قيمة ورائدة في مجال الدرس اللغوي والبلاغي واستطاعوا بلورة هذه الجهود وصياغتها في شكل مقولات ومفاهيم وتصورات، بالاعتماد على الممارسة والتجربة والمران، والتعامل المباشر مع النصوص الأدبية والشعرية، الأمر الذي أتاح لهم تأسيس مشروع أدبي ولغوي وبلاغي خصب، مبني على النظر والتمحيص والتمييز والخبرة والقياس، بعيدا عن الانطباعية والأحكام الجاهزة المسبقة، قائم على أسس وقواعد منطقية صحيحة، وقابل للتجدد والتطور والحياة.

الكلمات المفتاحية: درس لغوي، بحث بلاغي، نقد، ظاهرة أدبية.

Abstract:

The early Arabs made praiseworthy, valuable and pioneering efforts in the field of linguistic and rhetorical study and were able to crystallize these efforts and formulate them in the form of sayings, concepts and perceptions, relying on practice, experience and practice, and direct interaction with literary and poetic texts, which allowed them to establish a fertile literary, linguistic and rhetorical project, based on consideration Examination, distinction, experience and measurement, far from impressionism and pre-existing judgments, is based on sound logical foundations and rules, and is subject to renewal, development and life.

Keywords: language lesson, rhetorical research, criticism, literary phenomenon

* المؤلف المراسل

مقدمة:

لا شك أن الظاهرة الأدبية هي في ماهيتها وجوهرها ظاهرة لغوية، فلا يمكن سبر أغوار الظاهرة الأدبية إلا من خلال اللغة، فالناقد الأدبي وهو يتصدى للنصوص والمقولات ويدرس المدونات، إنما يتعامل في ذلك كله مع اللغة، بوصفها مادة الأدب والنقد وموضوعهما، فالناقد أو الدارس يستخدم اللغة، ويقوم بتوظيف آلياتها وتطويع أدواتها، وتسخير مناهجها في قراءة النصوص وتأويلها، ومن ثم فهي المرجع الذي يشتغل عليه في تحليل القضايا والموضوعات في إطار الممارسة النقدية.

ومن ثم حرصنا في هذه الورقة البحثية على اعتماد منهج وصفي تحليلي لرصد السبل العامة التي سارت عليها اللغة، باعتبارها أداة التفاهم، ووسيلة التخاطب بين البشر، فهي اجتماعية تواصلية، يؤكد بها الإنسان ذاته من جهة، ويستشعر بها وجوده من جهة أخرى، فهي ليست بشرية فحسب، بما تشتمل عليه من حركات وسكنات تظهر في الأصوات، وإنما تنبض بالمعنى الذي يضيفه الإنسان على الأشياء. فهل الممارسة النقدية تقوم أساسا على رافد لغوي ومد بلاغي؟ كيف أسهم الدرس اللغوي والبحث البلاغي عند العرب القدامى في إرساء دعائم وأسس النقد الأدبي؟ وهل الممارسة النقدية هي في جوهرها وأصولها ظاهرة بلاغية ولغوية؟ وهل مقاربة الظاهرة الأدبية وتحليل قضاياها مرجعها لغوي بلاغي؟

لقد أدرك النقاد العرب هذه الحقيقة، وفطنوا إلى أهمية اللغة في العمل الأدبي، فأولوها اهتمامهم، وصرفوا إليها عنايتهم، حتى صار الناقد منهم -كابن الأثير مثلا- يدل على خيرة مما يستكشف من دقائق اللغة وأسرار الألفاظ والتراكيب"[1]، وليس أدل على اهتمام النقاد باللغة أنهم اعتمدوا في تقسيم العمل الأدبي مقياسين، أما المقياس الأول، فهو "بيان سلامة العمل المنقود من الخطأ، ومطابقته للمألوف من قواعد اللغة، والمعهود من نظامها"[2]، أما المقياس الثاني فهو" الكشف عن مواطن الجودة والرداءة في ذلك العمل"[3]

---

[1] نعمة رحيم العزاوي، (1978)، النقد اللغوي عند العرب، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، ص 6.

[2] المرجع نفسه، ص 153.

[3] تمام حسان، (1983)، اللغة والنقد الأدبي، فصول: مجلة النقد الأدبي، المجلد الرابع، العدد الأول، ديسمبر، 1983، ص116.

1- الدرس اللغوي والبلاغي: من التنظير إلى التقعيد:

إن علاقة الممارسة النقدية باللغة والبلاغة عند العرب، لم تكن وليدة هذا العصر، بل لها امتدادات وإرهاصات وبواكير في تراثنا الأدبي، الذي يكشف عن تجارب وجهود نقدية، أفاد أصحابها من الدراسات اللغوية والبلاغية، ووظفوها في فهم النص الديني، ذلك أن جل هذه الدراسات عند العرب، قد نشأت في رحاب الدراسات القرآنية، باعتبار أن الباحثين والدارسين كان هدفهم معرفة جماليات النص القرآني، وتبين أوجه الإعجاز فيه، وما تميز به من نظم بديع وتأليف محكم، وفي ظل هذا الاهتمام بالنص القرآني فهما وتفسيرا ودرسا، برزت علوم اللغة كالنحو والصرف وعلم البلاغة.

ومن ثم فإن المتصفح لتراثنا النقدي والبلاغي، يدرك أن العملية القرائية للبنية النصية، إنما هي إلا نقطة تماس بين حقول معرفية، كالبلاغة والنحو والصرف والنقد والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع، الأمر الذي يؤكد أن نظرية النقد عند العرب، كانت استجابة لتجليات معرفية، شكلت في نهاية المطاف رافدا معرفيا للنقد الأدبي العربي، ومنه يمكن القول : إن نظرية النقد العربي، قد نشأت وتشكلت في إطار لغوي بلاغي، بحكم أن المعرفة الإنسانية هي جملة من الأنظمة المعرفية التي تأسست ملامحها المنهجية، وتبلورت استراتيجيتها وفق آلية التراتب والتراكم ، ثم التشكل والتميز، انتهت ببروز اتجاهات ومذاهب نقدية حديثة، حاولت مقاربة الظاهرة الأدبية، وفق نظريات حداثية، لكنها مطعمة بمرجعيات تأصيلية، لذلك " أراد أصحابها أن يكشفوا عن النقص الذي زعموه في النقد القديم، لم يجدوا من المطاعن ما يدفعون به، إلا أنه نقد لغوي الطابع، لا يكاد يتخلص من ربقة الدراسات اللغوية على نحو ما كانت عليه هذه الدراسات في القرون الإسلامية الأولى، وإنما جاء هذا الطعن على النقد القديم من جهة أنه لخص عطاءه في قواعد البلاغة العربية، حتى لم يعد قادرا على التطور، ولاسيما بعد أن تطور النقد الحديث في مجالات عدة متكاملة، جعلت النظرة النقدية كألوان الطيف تأخذ من كل شيء ما تحتاج إليه فتنتفع بالدراسات النفسية والاجتماعية والأخلاقية والدينية واللغوية والذوقية والجمالية"[4]

[4] نعمة رحيم العزاوي، النقد اللغوي عند العرب، ص 155.

2- تعالق اللغة والبلاغة: من مفهوم التجنيس إلى مشروع التأسيس:

لقد اعتمد الدرس اللغوي والبلاغي عند العرب على كلام العرب الفصيح، من خلال جمعه واستقرائه، وبات مرجعا أساسيا يعتد به ويحتكم إليه، يستنير به الخطباء والشعراء والكتاب والبلاغيون، في ظل الاستخدام اللغوي الصحيح، البعيد عن اللحن والعجمة والرطانة، وباتت مهمة الناقد تحكيك النص وتنقيحه، ورصد ما فيه من أخطاء لغوية، وبيان مواطن الجودة والرداءة فيه، ثم ظهر النحاة وصاغوا قواعد النحو، وضبطوا مسائله، ووضعوا أحكاما وأصولا للغة، رغم أنهم "حاولوا أن يفرضوا آراءهم وقواعدهم على الشعراء، غير آبهين بما يمكن أن يجيء به الشاعر من استعمالات يقيسها على نظائر لها في كلام العرب، أو يبتكرها ويبتدعها، بعد أن تدفعه إليها مضايق الشعر، وضرورات التعبير بقوالبه وأوزانه"[5]

ومن ثم راح اللغويون والبلاغيون يحرصون في مباحثهم على تتبع النصوص والنظر فيها والعمل على تنقيح أساليبها وعباراتها وتراكيبها ونظمها، وإحالة خصائصها ونُظُمها على قواعد اللغة ومعايير البلاغة، ولاسيما النصوص الشعرية التي يحاول أصحابها تجاوز ما هو مألوف من أصولها، بل "وجد النقاد اللغويون في لغة عدد من الشعراء تراكيب واستعمالات تند عن المألوف من قواعد اللغة، ولا تساير المعهود من أساليبها فحكموا على بعضها بالخطأ"[6]

إن اللغة هي عماد أي إبداع أدبي، لذلك ذهب "طه حسين" في كتابه" ذكرى أبي العلاء "إلى ضرورة أن يتمثل الناقد في ممارسته النقدية علوم اللغة والبلاغة والتحكم في أساليبها وفنونها، وأن يتجاوز لغة المعاجم والقواميس، ولغة الوقائع والأحداث والأخبار، ويضطلع بإتقان علوم اللغة وآدابها وبلاغتها، ولا يكتفي بما جاء من درس اللغة، بحثا في القاموس واللسان والمتخصص والمحكم"[7]، فاللغة هي التي تسيطر على الأدب، والنحو هو الذي يستحوذ على اللغة، ومن ثم فالناقد الأدبي يركز على التركيب اللغوي للأدب، وهو ما

---

[5] المرجع السابق، ص 155.

[6] طه حسين، (1963)، تجديد ذكرى أبي العلاء، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص17.

[7] محمد زكي العشماوي، (2009)، الرؤية المعاصرة في الأدب والنقد، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت، ص 13.

جسده "لطفي عبد البديع" في كتابه "التركيب اللغوي للأدب"، فالناقد يحاول في ضوء هذا المنهج دراسة النصوص وتمييز الأساليب، مرتكزا على ضروب من المعرفة باللغة والبلاغة، معتدا بالذوق والاستعداد والثقافة، فيتناول الشعر ويدرسه من جهة ضبطه، ومعرفة بنية الكلمة، وكل ما يتصل بالنحو والإعراب والبيان.

3- من المفاهيم والشروح إلى الرؤية والمشروع:

لعل المتصفح لتراثنا، يدرك مدى اهتمام علماء اللغة والبلاغة بلغة الأدب، فأسهبوا في الحديث عن فصاحة الألفاظ وأصالتها وشرف معانيها، والحوشي منها والغريب، وعن التقديم والتأخير والفصل والوصل، وتناولوا الأساليب الخبرية والإنشائية بأنواعها وأغراضها، وحين تصدوا للشعر، وأخذوه بالنقد، اعتمدوا في تقويمه على مقاييس تحصره في جودة اللفظ والمعنى، أو حسنه في أحدهما دون الآخر، أو رداءته في الجهتين، وتفضيل شعر على شعر، وشاعر على آخر، وما كان لهؤلاء اللغويين والبلاغيين أن يتدارسوا النصوص الشعرية ويتطارحونها، لولا معايشتهم لها وتحاورهم معها، الأمر الذي ألهمهم الخبرة باللغة ومعانيها وتراكيبها، والبلاغة وأساليبها، ولعل هذه الخبرة هي التي خولت لهم بإصدار وتأسيس قوانين تقضي بعدم صحة مخالفة قواعد اللغة وأصولها، ومراعاة المقاييس البلاغية في الكلام، ولا مجال للخروج عن هذه الضوابط والمعايير تحت ذريعة حرية التعبير، وبدعوى الحداثة والمعاصرة، فإذا كانت علاقة الباحث العلمي باللغة هي علاقة علمية محضة، يحكمها المنطق والوضوح والقوانين والحدود فإن لغة الأديب ينبغي أن تتلبس بالفن والجمال والخيال والإبداع، أما علماء اللغة والبلاغة فكانت تحكمهم شروط ومقاييس علمية في تعاملهم مع النصوص الشعرية، لأن غايتهم التنظير ووضع المعايير التي يجب أن تحكم النصوص، لذلك "يختلف العلم عن الفن، لأن الفن هو نتيجة ما في الفنان من تباين وفردية، بل إن قيمة الأثر الفني لترتفع وتسمو كلما كان هذا التباين وتلك الفردية مظهرين واضحين في الأثر الفني"[8]، وكلما ازدادت معرفة الأديب باللغة، ومفاهيم البلاغة استطاع أن ينفرد بشخصية متميزة، تتيح له درس الظاهرة الأدبية دراسة متصلة بالتشكيل والأداء وطرائق التعبير، والتركيب والنظم والأسلوب، وكلها خيوط تشكل النسيج اللغوي

[8] المرجع السابق، ص 13.

للنص. "فالنص الأدبي ينتمي إلى صاحبه من حيث هو كلام مبثوث، أما أدبيته فهي أساسا وليدة تركيبته اللغوية أي وليدة ما ينشأ بين هذه العناصر من أنسجة متنوعة متميزة فالطابع الشعري في كل حدث أدبي هو بمثابة تفجر للطاقات التعبيرية الكامنة في صميم اللغة"[9]

ويحاول النقد الأدبي الكشف عن طبيعة النص الأدبي وخصائصه اللغوية والجمالية، المنصهرة مع تجارب الأديب، ومن ثم فاللغة لها أهمية كبرى في التعبير والأداء والخطاب، فاللغة بعبقريتها ونظامها لاتقف عاجزة لترجمة المشاعر والمواقف، بوصفها منظومة كبرى، مؤلفة من نُظُم، كنظام الأصوات ونظام الصيغ، ونظام الاشتقاق ونظام النحو، وهذه المنظومة المتعددة العلاقات والفروع والعناصر، تشبه الجسم الإنساني الذي يمثل نظاما حيويا ذا وظيفة كبرى هي تحقق الحياة، ولكنه مؤلف من أنظمة فرعية، منها النظام الهضمي والتنفسي والإفرازي، وفي كلتا الحالتين حالة اللغة وحالة الجسم الإنساني تتكامل الأنظمة الفرعية، فيفتقر كل منها إلى أداء النظام الآخر لوظيفته، ولو بطل عمل أحد الأنظمة لاستحال على النظام الأكبر أن يحقق وظيفته التي قام من أجلها وهي الاتصال بالنسبة للغة، ودوام الحياة بالنسبة للجسم الإنساني"[10]

ومنه فإن الممارسة النقدية في حاجة إلى معارف ينطلق منها لمقاربة الظاهرة الأدبية، إلى جانب أن "الناقد المثقف هو الذي وقف على قدر موسع من المعرفة ليكون له عونا في رصد قيمة الأعمال الأدبية وتحليلها، فهذه الحصيلة الثقافية تضمن سلامة أحكامه وصوابها، وبها يكتسب عمق النظرة والقدرة على النفاذ إلى ما وراء الأشياء"[11]، ولاشك أن كل قراءة لنص أدبي ما، تنطلق من خلفيات معرفية وفلسفية، وقد أسهمت المباحث اللغوية في نشأة النقد الأدبي حيث اهتم اللغويون بالشعر وروايته، واتخذوه مرجعا لتفهم أسرار النص القرآني وتفسيره فتوطدت الصلة بين اللغة والدين، وقد أرجع الجاحظ استمرارية الشعر وبقاءه أمام ضعف الذاكرة والنسيان إلى خصائصه الشكلية" فهو للحفظ

[9] عبد السلام المسدي، (1983)، النقد والحداثة، ط1، دار الطليعة البيروتية، لبنان، ص 38.

[10] تمام حسان، اللغة والنقد الأدبي، ص 117.

[11] سنية أحمد محمد، (1977)، النقد عند اللغويين في القرن الثاني، دار الرسالة، بغداد، العراق، ص 19.

أسرع، والأذان إليه أنشط، وهو أحق بالتقيد وقلة التفلت"[12]، ومن ثم عمد اللغويون لرواية اللغة إلى وضع ضوابط زمنية ومكانية" فحددوا زمن الاحتجاج بداية من العصر الجاهلي حتى منتصف القرن للهجرة بالنسبة على عرب الأمصار، وإلى أواخر القرن الرابع للهجرة بالنسبة إلى عرب البوادي"[13]

وفي خضم هذه الخصومات كانت للغويين والبلاغيين آراء في الشعر والشعراء، وكانت لهم جهود للتقعيد البلاغي والتأصيل النحوي وتقويم الشعر من أجل بناء شخصية الناقد الأدبي وإثراء ثقافته، وكان هذا الرصيد بمثابة مرجع للنقاد، وهو ما يؤكد أن الدرس اللغوي والبلاغي ليس مبحثا مستقلا عن العلوم النحوية والفقهية والبيانية، وهو ما يتجلى في الدراسات اللغوية والبلاغية التي دارت حول العديد من القضايا المتصلة بالنقد الأدبي، منها قضية الانتحال وقضية السرقات الشعرية، والموازنات بين الشعراء والنصوص الشعرية، فكانت النصوص الشعرية محل حركة نقدية وبلاغية، وكان لعلماء اللغة والبلاغة جهود واجتهادات في هذا المجال ، وهذا الأصمعي نموذج للناقد اللغوي، من خلال كتابه "فحولة الشعراء"، وكتابه هذا هو كتاب يجمع بين الدرس اللغوي والممارسة النقدية، بحكم تعامل صاحبه مع النصوص مباشرة، الأمر الذي أضفى عليه مسحة من النقد التطبيقي "فالنقد التطبيقي هو أحد المشارب التي يمكن عن طريقها إثراء النظرية النقدية أو توسيع حدود التراث النقدي"[14]، بل إن من اللغويين من اختار تأويل بعض ما في لغة الشعر من تراكيب وصيغ وعبارات، تخالف ما هو شائع في اللغة، ووصفوها أنها من الضرائر: أي من الضرورات الشعرية، في حين وجدت فئة من أهل اللغة من لم يتساهل في مؤاخذة الشعراء ورفضوا أن يخلوا بما هو شائع ومألوف من قواعد اللغة، وذهب فريق آخر إلى قبول ما حمل على الضرورة من أقوال القدامى لكنهم لم يبيحوا للمحدثين مجاراة تلك الأقوال، ولو أخذنا موقف "ابن الأثير" من هذه القضية وجدنا أنه خالف موقف غيره من النقاد

---

[12] أبو عمرو بن بحر الجاحظ، (1948)، البيان والتبيين، ج1، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص 287.

[13] إميل بديع يعقوب، (1999)، المعجم المفصل في شواهد النحو، مج1، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 7- 8.

[14] أحمد صبرة، (2000)، شرح المرزوقي، النظرية والإجراءات، ط1، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ص10.

اللغويين السابقين له، والذين عاصروه، ذلك أنه يرى أن المقياس الذي ينبغي أن نحكمه ونعتد به في لغة الأدب، هو الحسن لا الصواب والمرجع في ذلك ليس قواعد النحو، وإنما الذوق، يقول :"إن الجهل بالنحو لا يقدح في فصاحة النحو ولا البلاغة ولكنه يقدح في الجاهل به نفسه، لأنه رسوم قوم تواضعوا عليه، وهم الناطقون باللغة، فوجب اتباعهم، والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره، وغرضه منه رفع الفاعل ونصب المفعول به أو ما جرى مجراهما، وإنما غرضه إيراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن، المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة، ولهذا لم يكن اللحن قادحا في حسن الكلام"[15]، وكان النقد ولا يزال يستعين ويسترشد بمباحث اللغة حين يتعلق الأمر بالمعنى، ويستند إلى مباحث البلاغة حين يتعلق الأمر بالفصاحة والبيان والبديع، ثم إن البحث في معرفة الدلالات والإيحاءات المجازية للألفاظ وكشف العلائق بين أركان التشبيه والعلاقة بين طرفي الاستعارة .."كلها مباحث وثيقة الصلة بالمعجمية والدلالة، كذلك عندما يشار إلى الترادف أو التضاد أو التجانس أو المقابلة، وما شابه ذلك وشاكله، إنما هو بحث في جماليات الألفاظ وتأثيرها في الأسلوب"[16]

4- من ثقافة التحصيل إلى الإسهام والتأصيل:

إنّ المتأمل في الظاهرة اللغوية والبلاغية من خلال دورة التخاطب وسياق التواصل هي التي انتهت لبناء نماذج نظرية وعلمية، تحلل الخطاب اللغوي والبلاغي بوجه عام، والنص الأدبي بوجه خاص في ضوء علاقة تفاعلية، وضمن سياق يعطي للنص قيمته اللغوية والجمالية.

وفي هذا السياق، يقول "عبد الرحمان الحاج صالح": "..إن علم اللسان أو اللسانيات هي التي تمكن الناقد من الخروج من النقد الانطباعي الذاتي إلى النقد العلمي الموضوعي، كما كانت تمكن العلماء العرب قديما من تجنب النزعة الانطباعية التي قد يصيب أصحابها الغرض منها أحيانا، لكن بكيفية غير موضوعية وبدون أن يدلوا ببرهان على ما يقولون،

[15] ضياء الدين ابن الأثير، (1939)، المثل السائر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ص 19.

[16] إبراهيم محمود خليل، (2003)، النقد الأدبي الحديث، دار المسيرة، عمان، الأردن، ص 75.

فالتحليل العلمي للنصوص خاصة في الغرب تأثر إلى حد بعيد بالطرائق التحليلية التي وضعتها هذه العلوم في زماننا، فاعتمدوا على المفاهيم والنظريات التي بنيت عليها هذه الطرائق العلمية، وبدا ذلك في البلدان العربية بعد الكلل الذي أحس به الناس إزاء التحاليل التاريخية للأدب"[17]

ومثلما أثر الدرس اللغوي في المباحث النقدية، كان للدرس البلاغي حضوره وتأثيره في البحث البلاغي، في ظل التطور الذي شهدته البلاغة العربية في سيرورتها وتطورها، من خلال ما وصلنا من جهود وآراء "ابن قتيبة"، و"الجاحظ" و"حازم القرطاجني"، و"أبي هلال العسكري"، وكتابات "عبد القاهر الجرجاني" صاحب نظرية النظم، من خلال كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، الذي اعتمد في دراساته على المفاهيم النحوية واللسانية والبلاغية، وقد أشار إلى أهمية هذه المباحث والدراسات كثير من الدارسين المحدثين، مثل : "أحمد المتوكل" الذي ذهب إلى أن الدرس اللغوي العربي القديم "ينقسم إلى لسانيات الجملة ولسانيات الخطاب، تمثلها كل من البلاغة والتفسير وأصول الفقه، حيث تواجه هذه المباحث وحدة لغوية أكبر من الجملة رغم تفاوتها في استحضار مقتضيات التواصل أثناء مواجهة الخطاب"[18]، وهو ما توقف عنده "عبد الرحمان الحاج صالح" الذي أشار إلى صلة الدرس اللغوي العربي القديم، والبحث البلاغي بالنقد الأدبي، بقوله : "أما فيما يخص العلماء العرب قديما، فإنهم تفطنوا إلى أهمية الدراسة للأثر الأدبي في ذاته، أي من حيث هو خطاب له خصائص ومزايا، بنية خاصة وطرق تعبيرية خاصة لتأدية أغراض خاصة، وحاولوا بهذا الصدد أن يربطوا بين هذه الدراسة للخطاب، وبين ما ينتجه النحو لصاحب الخطاب من طرق متنوعة للتعبير عن المعنى الواحد، فهذا النوع من الدراسة الشاملة هو إبداع الفكر العربي... والعرب هم أول من فكر في حصر الظواهر الصوتية والنحوية.. وهذا الذي يسميه عبد القاهر الجرجاني بمعاني النحو.."[19]، ومن ثم لا يمكن أن نتصور خطابا

---

[17] عبد الرحمان الحاج صالح، (2007)، التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة والبلاغة العربية، ج1، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الجزائر، ص376.

[18] حفناوي بعلي، (2007)، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ص47.

[19] عبد الرحمان الحاج صالح، التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة والبلاغة العربية، ص377.

لغويا منسجما دون المعاني النحوية والبلاغية، فضلا عن أن اللغويين العرب الأوائل، قد جعلوا النحو مقياسا وأساسا لفهم المعاني البلاغية، ذلك أن الدرس اللغوي العربي، لم يكن أبدا بمعزل عن الدرس النقدي والدرس البلاغي، فالنحاة كانوا يعتدون بالشعر ويستدلون به بوصفه عنوانا للبيان ومجلى للفصاحة، وهو ما أكده الجرجاني بقوله: "ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفرادا ومجردة من معاني النحو... واعلم أني لستُ أقول: إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة، ولكني أقول إنه لا يتعلق بها مجردة من معاني النحو.."[20]

وابتداء من القرن الثاني للهجرة إلى القرن الثالث للهجرة، تأسس علم النحو واللغة، بعد أن تفشى اللحن بين العرب وغيرهم من الأمم الأخرى، فاهتم النحاة واللغويون باستنباط قواعد عامة، يلتزم بها الشعراء والأدباء، للإبقاء على اللغة العربية سوية، وآدابها قوية.

ولعل هذا الباب قد فتح المجال واسعا أمام البلاغيين واللغويين لتأسيس النقد الأدبي "على أسس علمية بعد أن ظل لفترة طويلة حكرا على الأدباء والمتأدبين والشعراء والرواة والمتذوقين"[21]

ولعل من أبرز نقاد هذا العصر "ابن أبي إسحاق الحضرمي" و"عيسى بن عمرو الثقفي" و"أبو عمرو بن العلاء" و "يحي بن يعمر البصري" و "عنبسة الفيل" وغيرهم.. وقد تجلت في أحكامهم وآرائهم النقدية معرفتهم باللغة والنحو والشعر، وظل أهل اللغة والنحو والبلاغة يرصدون جهود الأدباء ويقومون نتاجهم، ويتدارسون أشعارهم، وهذا "عيسى بن عمرو" يخطئ النابغة الذبياني "في قوله:[22]

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرَتْنِي ضَئِيلَةٌ مِنَ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ

فرفع "ناقعُ"، حيث كان يجب أن ينصب على الحال"

---

[20] نصر حامد أبو زيد، (2000)، الخطاب والتأويل، ط4، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص6.

[21] عصام حسين إسماعيل أبو شندي، (2006)، نقد النثر العربي في كتابات إحسان عباس، ط1، دار الشروق، عمان، الأردن، ص21.

[22] منصور عبد الرحمان، اتجاهات النقد الأدبي من الجاهلية إلى نهاية القرن الرابع الهجري مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، مصر، ص 71.

ومن ثمّ كان للغويين والبلاغيين دورٌ كبيرٌ في تفعيل حركة النقد الأدبي عند العرب، والتأسيس له، فالأدباء والشعراء لم تكن لهم ثقافة وخلفية لغوية وعلمية، في حين أن المشتغلين باللغة والبلاغة والنحو هم أولئك الذين استلهموا الروح الإسلامية، وهيأت لهم أسباب البحث المتشعب، "فكانوا أمزجة خاصة وذهنية خاصة في تاريخ النقد الأدبي"[23]، وقد أثمرت هذه الجهود أن تطور النقد الأدبي واستوى على سوقه، وصار يتناول النصوص الأدبية بالدرس والتقويم والتحليل، وفي هذا السياق يستوقفنا موقف "ابن جني" من مدائح المتنبي التي رأى أنها مقنعة، وتحمل في طياتها هجاء، نحو قوله :[24]

وَشِـعْرٍ مَدَحْتُ بِهِ الكَرْكَدَنَّ بَيْنَ القَريـضِ وَبَيْنَ الرُّقَــى

وقوله : ومَا طَرَبِي لمَّا رَأَيْتُكَ بِدْعَـةً لقدْ كنتُ أرجُـو أنْ أَرَاك فَأَطْـرَبُ

وفي ظل تعدد مسائل هذا العلم وتشعب قضاياه، برز مذهب أهل البصرة والكوفة الذين اشتغلوا واهتموا بتمحيص كلام العرب واستنباط القواعد والضوابط النحوية منه، ومارسوا النقد على الشعر "لا من حيث عذوبته أو رقته أو جماله الفني، بل من حيث مخالفته للأصول التي هداهم استقراؤهم إليها في إعراب أو وزن أو قافية"[25] ، وظلت مدرسة العلماء من اللغويين والبلاغيين والنحاة، ترصد الحركة الأدبية، معتمدة على مقاييس الصحة والدقة في الأداء اللغوي، قبل مراعاة الذوق والشعور، ومن أمثلة ذلك ما قاله "خلف الأحمر" في معرض إعجابه بقول "امرئ القيس" :[26]

أَفَــــادَ وَجَـــــادَ وَسَـــــادَ وَزَادَ وَقــــاَدَ وَذادَ وَعَـــــادَ وَأَفْضَـــــلَ

لأنَّه جمع كثيرا من المعاني ".

وظل اللغويون والبلاغيون والنحاة يتتبعون شعر الشعراء، ويتناولونه بالتمحيص والدرس، ويعملون على رصد أخطائهم وتصويبها، بالاستناد إلى القاعدة النحوية والذائقة

---

[23] طه أحمد إبراهيم، (2006)، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري، ط2، دار الكتب العلمية، لبنان، ص51.

[24] إحسان عباس،(1993)، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، ط1، دار الشروق، عمان، الأردن، ص 273.

[25] طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري، ص 53.

[26] منصور عبد الرحمان، اتجاهات النقد الأدبي، ص 81.

الجمالية البلاغية، التي لم يستأنس بها الشعراء، ولم يخضعوا لها، بل عمد هؤلاء إلى التحامل على النحاة واللغويين واتهامهم بالعجمة وجهلهم بالشعر وجمالياته، على نحو ما جاء في قول "عمار الكلبي":[27]

ما كُلُّ قَوْلِي مَشْرُوحًا لَكُمْ فَخُذُوا مَا تَعْرِفُونَ، وَمَا لَمْ تَعْرِفُوا فَدَعُوا

ويَقُولُ رُؤْبةُ: لَا يَنْظُرُ النَّحْوِيُّ فِيهَا نَظَرِي وَإِنْ لَوَى لحْيَيْهِ بالتَّحَكُّرِ

ومن ثم ندرك مدى إسهام اللغوي والبلاغي في إرساء مبادئ الممارسة النقدية للأدب، من جهة صحة الكلام، واستقامة المعنى، وإن فاتته جوانب أخرى تتصل بجماليات الكلم.

ولعل هذا ما يفتح باب التخصص في المعارف والعلم والأدب والنقد، وهو ما أشار إليه "الجاحظ" بقوله: "طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدتُه لا يُتقنُ إلا إعرابه، فعطفت على "أبي عبيدة " فوجدتُه لا ينقلُ إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردتُ إلا عند أدباء الكتاب كالحَسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات"[28].

وفي السياق ذاته، أسهمت علوم البلاغة في تنشيط الحركة النقدية ، فبعد أن كان النقد انطباعيا تأثريا، بات يفسر الظواهر الأدبية ويحللها ويراجعها، ذلك أن البلاغة العربية نشأت في أحضان النص القرآني، من خلال مباحث الإعجاز فيه، ومحاولة كشف أسراره، رغم أن الدرس البلاغي ظل متداخلا مع قضايا النقد ومسائله، وهو ما يتجلى لنا في جهود وآراء "عبد القاهر الجرجاني" و "ابن طباطبا" و"الآمدي" و"أبي هلال العسكري" و "قدامة بن جعفر" "فالبلاغي هو القادر على التمييز بين الجيد والرديء، المطبوع والمصنوع، الإبداع والجري على سنن الأقدمين.."[29]، وقد أسهمت هذه الجهود في إرساء وبلورة مفاهيم النقد الأدبي العربي، وضبط مسائله وقضاياه، كقضية اللفظ والمعنى والطبع والصنعة، القدم والحداثة، التقليد والتجديد والانتحال.. ومن ثم تبنى النقد هذه المقاييس والمبادئ والأصول التي كرسها الدرس البلاغي، واعتمد عليها في تقويم الظاهرة الشعرية، الأمر الذي عزز علاقة

---

[27] عبد الكريم راضي، (2003)، نظرية اللغة في النقد العربي (دراسة في خصائص اللغة الأدبية من منظور النقاد العرب) الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط1، القاهرة، مصر، ص16.

[28] المرجع نفسه، ص 17.

[29] جودت فخر الدين، شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري، دار الآداب، بيروت، لبنان، ص32.

البلاغة بالمباحث اللغوية والجهود النقدية، لذلك يمكن القول إن النقد الأدبي العربي ما بين القرن الثاني للهجرة والقرن الثامن للهجرة، كان وليدا للمباحث البلاغية والدراسات النقدية، وبات تحت تأثيرها مادة مستحكمة ثرية خصبة في نظرياتها وفلسفتها ومناهجها، وعرف بذلك تطورا في العقود الأخيرة، وصار يغترف من علوم ومعارف مختلفة، غير علم اللغة وعلم البلاغة، فأخذ من الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس، والأخلاق، وغدا يطبق مناهج العلوم الإنسانية على الظواهر الأدبية، باعتبار أن "الظواهر الأدبية ظواهر مركبة متشابكة ذات جوانب وأبعاد متعددة، ونتيجة لهذا يجب أن تدخل في اختصاص علوم متعددة، كعلم اللغة وعلم الاجتماع والتاريخ وعلم النفس... لذلك كان ميدان النقد الأدبي متعدد المناهج"[30]

5- أهمية الدرس اللغوي والبلاغي وأثره في نهضة الأدب ونقده:

لا يمكن أن نتصور نهضة أدبية ما لم تواكبها نهضة نقدية، ترصدها وتسلط الضوء عليها، وتنير لها الدرب، وتسهم في بلورة مقاييسه وقيمه الجمالية والفنية والإنسانية، بل إن حركية النقد الأدبي وفعاليته هي امتداد لحركية المجتمع وتطوره وفعاليته، ومن ثم فهو نتاج " للتحولات التاريخية والاجتماعية التي عرفها المجتمع العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حين وجه العرب أنفسهم مباشرة أمام معرفة الآخر، الغرب الذي خطا خطوات بعيدة جدا في مجال تحليل الإنسان والتاريخ والمجتمع، ومختلف النشاطات التي نجمت عن علاقات الإنسان بالعالم"[31]

من أجل ذلك اعتبر اللغويون ورواد البلاغة نقد الشعر صناعة وثقافة، بل رأوا أنفسهم أولى بنقده وتمحيصه وتقويمه، في حين لا يصلح رواة الأخبار والعارفون بالأنساب مثل "حماد" للممارسة النقدية، لأنه لا علم لهم بالنحو وأبنية الكلام، كما أسهم اللغويون والبلاغيون في تطوير الخطاب النقدي من خلال جمعهم مقولات الأدباء في الشعر والشعراء

[30] سمير سعيد حجازي، (2007)، قضايا النقد الأدبي المعاصر، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ص45-46.

[31] سعيد يقطين، فيصل الدراج، (2003)، آفاق نقد عربي معاصر، ط1، دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، بيروت، ص19-20.

ورواية الخصومات الأدبية، فتعمقوا في فهم الشعر وتذوقه، وحددوا أنواعه، ورأوا في الشعراء قوي الصياغة، شديد الأسر والمليء بالمعاني، والسهل الرقيق، والصعب الملتوي والجزل.. فكان " النقد عند هؤلاء اللغويين والنحاة، رأينا نقدا يتصل بضبط الشعر ومعرفة بنية الكلمات، ونقدا يتصل بالنحو والإعراب.. وآخر يتصل بفنون من القوافي والأعاريض ورابعا فنيا يَمسُّ عناصر الجمال في الأدب ومكان الروعة فيه "[32]، ومن ثم تعاملوا مع الظاهرة الأدبية على أنها كيان لغوي ومجموعة من الأفعال النحوية والظواهر البلاغية والجمالية، ودرسوا النص على المستوى الصوتي والتركيبي والدلالي، يقول أحدهم: " إن ماهية الأدب لغوية، والكثير من الباحثين لا يترددون في اعتبار النص جملة هائلة.. ولا شك أن استيحاء النموذج اللساني قد ولد هذه النظرة للأدب أي اعتبار ماهية الأدب لغوية "[33]

وفي ظل هذه البيئة النشطة المزدحمة بالأفكار بالفكر اللغوي والبلاغي، توطد النقد الأدبي وتشعبت مباحثه، ونما واستوى واشتد عوده، وتبلورت مفاهيمه ومقاييسه، وصار نقدا مبنيا على العلم والتفسير والتعليل، يعتمد النمذجة، ويستوحي صرامة علم اللغة ومعيارية البلاغة، وانبثقت عنه علوم جديدة أخذت تحلل الأعمال الأدبية، كالأسلوبية وتحليل الخطاب والسيميائية.

وهكذا انفتح النقد الأدبي وراح يفد من مخرجات البلاغة ويغترف من مباحثها، وهي مباحث تقوم على النظر إلى النصوص واستبطان ظواهر بلاغية ونحوية، كالعطف والوصل والفصل والتقديم والتأخير، وهي المباحث نفسها التي أكدت على أهميتها الممارسة النصية المعاصرة، رغم أن بعض الدارسين والباحثين ذهبوا إلى أن المشروع البلاغي العربي الذي قدم مستوى راقيا ورفيعا في التنظير البلاغي، لم يواكبه مشروع يضاهيه على مستوى التطبيق" وإذا ما عُدنا إلى الممارسات النقدية العربية القديمة نجد أن اهتمامها كان منصبا على الجانب الإجرائي من البلاغة، أي صيغة تطبيق هذا المفهوم أو ذاك على هذه الجملة

[32] طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، ص 69.

[33] شكري عزيز الماضي، (1997)، من إشكاليات النقد العربي الجديد، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص 32.

أو هذه الكلمة، أكثر من اهتمامها بالنص ككل .."[34]، إلا أن الحافظ جلال الدين السيوطي "(1445م - 1505م) (849 هـ – 911هـ) كان خير مثال للدارس الذي حقق الممارسة النصية عن طريق التحليل البلاغي واللغوي، من خلال كتابه " تناسق الدرر في تناسب السور"، حيث تناول النص بالاستعانة بعلوم البلاغة ومباحث اللغة، والاستناد إلى بنية النظام القواعدي، ومنه لا يمكن للنقد الأدبي استثمار النص إلا بالجمع بين النحو واللغة والبلاغة، وهو ما استثمرته بحوث اللسانيات المعاصرة، من خلال تطبيق هذه الآلية في نقد النص وتحليله، وهو الأمر الذي جعل النص محور النشاطات التعلمية التعليمية، وتجاوز أزمة الانشطار التي كانت تطبع الأنشطة اللغوية وهو ما يؤكد أن التراث العربي اللغوي والبلاغي يزخر بالنفائس والكنوز التي تبقى في حاجة ملحة إلى من يتعمقه ويستوحيه ويتمثله، ويدرسه دراسة معمقة جادة تتماشى مع روح العصر، ويؤكد من جهة أخرى أنه كانت للعرب في مجال الدراسات اللغوية والبلاغية جهود رائدة ، ورصيد ثري، كان لها صدى واسع وأثر بالغ في الدراسات الحديثة، وهذه الجهود نجدها في ثنايا كتب النحو والصرف والصوتيات وكتب القراءات القرآنية والمعاجم اللغوية وكتب الإعجاز والبلاغة ومباحث النقد والدراسات الأدبية.

الخاتمة:

لقد ذهب أكثر من دارس إلى أن النقد الأدبي ما كان له أن يرقى ويبقى، ويفرض أهميته وهيبته وهيمنته في مجال التحليل للظاهرة الأدبية، لولا تلك الجهود المضنية العظيمة، وذلك الحصاد الوفير الذي قدمهُ الدرسُ اللغوي والبحث البلاغي، من خلال جملة الخلاصات والحصائل والمقولات والمقاييس التي انتهى إليها هؤلاء.

ومن ثم فهو نتاج وثمرة لهذه التقنيات الصارمة التي وضعها اللغويون والبلاغيون، وكانت بمثابة اللبنات التي قام عليها الخطاب النقدي العربي في مرحلة التأسيس، حيث أمسى قيمة وقوة فاعلة في مقاربة الظاهرة الأدبية والإبداعية بصفة عامة، غير منفصل عن علم اللغة وعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة. ولعل ما غذى وطعم هذا النقد

[34] سالم الحاج ساسي، (2002)، نقد الخطاب الاستشراقي، ج1، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ص 345.

بعناصر التجدد، هو تلك المعارك والخصومات الأدبية الفذة التي أنعشته وأنضجته، وغدا الدرسُ اللغوي والبحثُ البلاغي رافدا للممارسة النقدية الواعية التي تتناول النص، وتحكم عليه بقدر جودة لغته وسلامتها نحويا ودلاليا وجماليا، وخير مثال على ذلك "عبد القاهر الجرجاني" الذي صاغ نظرية النظم، التي خلص من خلالها إلى أن العمل الجيد هو الذي يراعي أصول النحو وقواعده ولا يغفل علم المعاني.

قائمة المصادر والمراجع:

1- نعمة رحيم العزاوي، (1978)، النقد اللغوي عند العرب، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية.

2- تمام حسان، (1983)، اللغة والنقد الأدبي، فصول: مجلة النقد الأدبي، المجلد الرابع، العدد الأول.

3- طه حسين، (1963)، تجديد ذكرى أبي العلاء، دار المعارف، القاهرة، مصر.

4- محمد زكي العشماوي، (2009)، الرؤية المعاصرة في الأدب والنقد، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت.

5- عبد السلام المسدي، (1983)، النقد والحداثة، ط1، دار الطليعة البيروتية، لبنان.

6- سنية أحمد محمد، (1977)، النقد عند اللغويين في القرن الثاني، دار الرسالة، بغداد، العراق.

7- أبو عمرو بن بحر الجاحظ، (1948)، البيان والتبيين، ج1، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان.

8- إميل بديع يعقوب، (1999)، المعجم المفصل في شواهد النحو، مج1، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

9- أحمد صبرة، شرح المرزوقي، (2000)، النظرية والإجراءات، ط1، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر.

10- ضياء الدين ابن الأثير، (1939)، المثل السائر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.

11- إبراهيم محمود خليل، (2003)، النقد الأدبي الحديث، دار المسيرة، عمان، الأردن.

12- عبد الرحمان الحاج صالح، (2007)، التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة والبلاغة العربية، ج1، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الجزائر.

13- حفناوي بعلي، (2007)، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان.

14- نصر حامد أبو زيد، (2000)، الخطاب والتأويل، ط4، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

15- عصام حسين إسماعيل أبو شندي، (2006)، نقد النثر العربي في كتابات إحسان عباس، ط1، دار الشروق، عمان، الأردن.
16- منصور عبد الرحمان، (1979)، اتجاهات النقد الأدبي من الجاهلية إلى نهاية القرن الرابع الهجري مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، مصر.
17- طه أحمد إبراهيم، (2006)، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري، ط2، دار الكتب العلمية، لبنان.
18- إحسان عباس، (1993)، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، ط1، دار الشروق، عمان، الأردن.
19- عبد الكريم راضي، (2003)، نظرية اللغة في النقد العربي (دراسة في خصائص اللغة الأدبية من منظور النقاد العرب) الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط1، القاهرة، مصر.
20- جودت فخر الدين، (1984)، شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري، دار الآداب، بيروت، لبنان.
21- سمير سعيد حجازي، (2007)، قضايا النقد الأدبي المعاصر، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر.
22- سعيد يقطين، فيصل الدراج، (2003)، آفاق نقد عربي معاصر، ط1، دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، بيروت.
23- شكري عزيز الماضي، (1997)، من إشكاليات النقد العربي الجديد، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
24- سالم الحاج ساسي، (2002)، نقد الخطاب الاستشراقي، ج1، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا.